كتب وشخصيات

زهرة العمر ... لتوفيق الحكيم

للأستاذ سيد قطب

مدرسة توفيق الحكيم الفنية

رددت قبل أن أكتب « مدرسة توفيق الحكيم » فالواقع أن كلمة « مدرسة » تعنى فى نفسى شيئاً كثيراً ؛ وليست هى مجرد الأسلوب الفنى وطريقة التعبير ؛ إنما هى هذا وشىء آخر ، هى طريقة الإحساس والتفكير ؛ بل هى طريقة حياة حين تؤخذ بمعناها الواسع الأصيل .

وليس من الضرورى أن يكون هناك أتباع وتلاميذ ، كى يتحقق معنى « المدرسة » ، فتلك مسألة تأتى مع الزمن ؛ إنما المهم أن توجد المعالم الواضحة المستقلة التى يلتقى عليها التلاميذ والأتباع حين يوجدون فى زمن قريب أو بعيد .

هذه المعالم هى سمات إنسانية وفكرية ونفسية تجتمع أصولها لتلاميذ المدرسة الواحدة ثم تفترق ألوانها وأنماطها حسب الأمزجة الخاصة والملكات الفردية . وتتبعها طريقة التعبير ، أى الأسلوب الفنى الجامع لتلك السمات .

فهل نستطيع بعد هذا البيان أن نقول : إن لتوفيق الحكيم مدرسة ؟

نعم نستطيع ! ولكننا نحتاج بعدها إلى التحفظات المحددة لحقيقة ما نعنيه . فتوفيق صاحب أسلوب فنى واضح السمات — هذا ما لا جدال فيه — وهو كذلك صاحب طريقة فى الإحساس والتفكير ، ولكن هذه الطريقة ترجع إلى مزاجه الشخصى وتكوينه النفسي ، أكثر مما ترجع الطبيعة العامة

وهذا كلام يحتاج إلى التوضيح !

يجنح توفيق الحكيم إلى أن يعيش فى داخل نفسه أكثر مما يعيش فى خارجها ، فلا تهمه الحياة المنطلقة فى الخارج كما تهمه الحياة التى يصورها خياله كما يريد ، وهنا تولد وتعيش تلك المخلوقات الفنية التى يرسمها على هواه من أمثال شهرزاد وشهريار وبيجماليون وعنان ومختار ... الخ .

فما منشأ هذا ؟ منشؤه هو إشفاق توفيق من الحياة ، وضعف الحيوية فى كيانه الجسدى . وقد يكون هذا الضعف علة ذلك الإشفاق ، ولكن مما لا شك فيه أن هناك أسباباً أخرى فى نشأته الأولى ، يمكن أن يقف عليها من يقرأ كتابه « عودة الروح » ، وإلا فالضعف الجسدى كثيراً ما يكون سبب دفعة حيوية فى الفكر ، كما فى « نيتشة » مثلاً

وليس بنا فى هذا المقال القصير أن نقوم بدراسة جسدية ونفسية ؛ ولكن حسبنا أن نشير إلى هذه الأسباب لتوضيح ما قلناه من أن طريقة توفيق فى الإحساس والتفكير مردها إلى مزاجه الشخصى وتكوينه النفسى .

فالذين يشبهون هذا الفنان فى مزاجه وتكوينه هم الذين سيكونون أتباعه وتلاميذه فى هذه الحياة الفكرية الباطنة التى ترسم الشخوص رسماً فنياً خاصاً . ولا بد لكل فنان من قسط من هذه الحياة الباطنة ينقص أو يزيد . ولكن يبقى أن يوهب هؤلاء التلاميذ — كما وهب — أسلوباً قوياً فنياً فى التعبير ، وأداة فنية ناضجة فى الحوار ، ليكونوا تلاميذ حقيقيين . وهو ما لم يوجد بعد ، على الرغم من المقلدين الكثيرين فى مصر وفى بلاد الشرق العربى الذين حسبوا الحوار هو كل موهبة توفيق الحكيم ، وحسبوا استيحاء الأساطير هو كل ما يميزه بين الفنانين !

نعم إن الطاقة محدودة ، وقد يأتى — فى هذا المجال — من هو أكبر طاقة وأبعد غوراً من توفيق الحكيم ؛ ولكن سيبقى له فضل السبق ، وابتداع الطريقة وإكمال الأداة

فى هذه الحدود نستطيع أن نقول : إن لتوفيق الحكيم مدرسة ؛ ولكننا نعود فنرد إليه حقه كاملاً حين نثبت له النضوج الكامل فى أسلوبه الفنى عامة والقوة البارعة فى حواره على وجه الخصوص . هنا موهبة متفردة لا شك فيها ، مهما قيل فى الطاقة التى يعمل بها وفى الموضوعات والفكر التى يتناولها

* * *

وبعد فما العنوان الذى يمكن أن نضمه لتلك المدرسة أو لهذه الطريقة ؟

هو عنوان « التنسيق الفنى »

يقول توفيق الحكيم فى إحدى رسائله إلى « أندريه » فى كتابه « زهرة العمر »

« إن فن الإغريق هو تجميل الطبيعة إلى حد إشعارها بنقصها ... لكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة : أنظرى ... كان ينبغى أن تصنعى هكذا ! ... »

ثم يقول : « إن فن مصر القديمة هو تحد صارخ للطبيعة ؛ فكأنهم يقولون للطبيعة انظرى.. لاشأن لنا بك ولا بمخلوقاتك، إننا نستطيع من مخيلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات أخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك على بال ... »

ويخيل إلىّ أن فن توفيق الحكيم هو تنسيق للطبيعة وتهذيب ، بالنقص هنا وبالزيادة هناك ، حتى يستوى له خلق فيه من الطبيعة مشابه ولكنه منسق على نحو خاص يرضى مزاجه الفنى الذى يجد مجاله فى مخلوقات الفن المنسقة على طراز مطلوب... وكأنه يقول للطبيعة : إنك فى منتصف الطريق ، ولا تزالين تخلطين بين الجمال والقبح وبين الرذيلة والفضيلة وبين الفكر والغريزة ... إلى آخر هذه الأمشاج ؛ فدونك مخلوقات أخرى مصفاة على نحو خاص ، ذات اتجاه موحد لا اضطراب فيه ولا اختلاط ... ! »

وهذه المخلوقات التوفيقية يتفق لبعضها الجمال الفنى فيغنيها عن جمال الحيوية ويضعها أنداداً مقابلة لمخلوقات الطبيعة ؛ ويخطئ بعضها التوفيق فتبدو باردة هامدة ، ولكنها لا تهبط إلى الموت أو الابتذال

وهنا نجدنا ملزمين بأن نرد لتوفيق حقه مرة أخرى فننص على أن هذا الاتجاه لا يستغرق جميع أعماله ؛ فهناك أعمال تنبض بالحياة الطبيعيه والحركة الحيوية — على نحو من الأنحاء — كيوميات نائب فى الأرياف ، ورصاصة فى القلب ، وعودة الروح، والزمار ، والعوالم ، وراقصة المعبد، وعصفور من الشرق ؛ وهى تؤلف جانباً كبيراً من أعماله الفنية المطبوعة بطابعه الخاص

وفى بعض هذه الأعمال تتهيأ الحبكة الفنية والحركة الحيوية ، إلى جانب الدعابة الفكهة والسخرية العميقة . وبخاصة « يوميات نائب فى الأرياف والزمار » وفيهما معالم واضحة للفن القوى المنشود !

ثم نعود إلى اصطلاح « التنسيق الفنى » الذى جعلناه عنواناً لمدرسة توفيق الحكيم فنقول : إننا نعنى به معنى آخر بجانب « تنسيق الشخصيات » نعنى به معنى فى طريقة العرض ، فى الأسلوب الذى تعرض به الشخصيات والحوادث والأفكار ، فهذه الطريقة موحدة سواء كان المعروض قصة أو تمثيلية أو فكرة فى مقالة . ولسنا نعنى به ما يعبرون عنه بالحبكة ، فهو أوسع من ذلك مدى . إنه « التصميم الهندسى » للعمل الفنى كله ، بحيث يبدو متساوقاً منسقاً مطرداً ، وبحيث يتهيأ هذا العمل الفنى كله فى ذهن الفنان قبل أن يبدأ اللمسة الأولى ، كما يضع المهندس تصميم مشروع كامل من المشروعات ، ثم ينفذه بعد ذلك حسب التصميم . وما قرأت عملاً من أعمال توفيق إلا كان هذا « التصميم الهندسى » واضحاً فيه كل الوضوح

ولعل أوضح ما يوضح ذلك هو « زهرة العمر » . فهذا كتاب مكون من مجموعة رسائل إلى صديقه أندريه ؛ وليس مطلوباً فى « رسائل » متفرقة أن تؤلف موضوعاً متناسقاً . فإذا هى كانت كذلك ، كان هذا دليلاً على أصالة ملكة « التنسيق الفنى » ، وظهورها حيث لا يرتقب منها الظهور

وتقرأ هذه الرسائل فى تتابع فتلحظ عملية التنسيق الداخلى ، وتحس شيئاً فشيئاً أنك أمام قصة : قصة مخلوق حقيقى أو روائى ، يسير فى الحياة وكأن يداً خفية تسوقه إلى مصير مرسوم ، وكلما أراد لنفسه أو أراد له أهله أو أرادت له ظروفه أن يحيد عن هذا المصير ردته هذه اليد الخفية إلى طريقه المرسوم !

شاب يريد له أهله الوظيفة بعد الليسانس فلا يوفقون ، ويبعثون به إلى أوربا للحصول على الدكتوراه ، فيجاهد فى سبيلها بما يستطيع — بعد أن يغرق فى الدراسات الفنية إلى أذنيه — ولكن تخونه ذاكرته فى الامتحان ، وتقيض له الحياة متع المرأة الحية جيماً — مع ساشا الجميلة وسواها — فيمل هذا المتاع ويتعلق بالمرأة الأخرى التى طردته من جنتها بعد أسبوعين

وتركته يتعذب ويتلظى (لأن تعلقه بها جزء فى الطريق المرسوم طريق الفن الملعون) ويعود فيوظف ويتجح فى وظيفته ويأخذ أهله أو يأخذ المجتمع فى تكبيله بقيد النجاح العملى ثم بقيد الزواج ... وهنا يستجمع المؤلف كل قوته الروائية فى المشهد الأخير وهو يستعد للوثبة النهائية وللخلاص من جميع القيود ؛ فيجمع هذه القيود فى مشهد واحد فى الرسالة الأخيرة ، قيد الوظيفه على أتعه ، وقيد الزوجية فى إبانه ، وقيد المجتمع فى احتقار الفنون ؛ وفى اللحظة نفسها يبدو كأنه نضج للفن واهتدى إلىّ سره وأمسك بالأسلوب الذى طال بحثه عنه ... ثم يسدل الستار بين الهتاف والتصفيق ! وبطل القصة أشبه بأبطال الروايات ، بل هو أشبه ما يكون « بيجماليون » !

هذا تنسيق يدل على أصالة فى فن التنسيق ، وهو ظاهرة ملحوظة فى « زهرة العمر » كل الظهور . وهى كذلك ملحوظة فى «يوميات نائب فى الأرياف» بمثل هذا الوضوح . وقد اخترت هذين العملين لأنهما ليسا قصة وليسا تمثيلية . فإذا توافر لهما هذا التناسق الكامل ، فما أولى القصص والتمثيليات بأن يتوافر لها من أيسر سبيل . وفى « زهرة العمر » رسائل تحوى كل منهما قصة صغيرة كاملة مثل « قصته مع ساشا » يبدو فيها التناسق فى أعلى مستواه

ومعنى ثالث نعنيه « بالتنسيق الفنى » هو إحالة الحوادث والملاحظات إلى مواد فنية خامة فى « الاستوديو » الدائب العمل ! فالناس يعيشون الحياة وتوفيق الحكيم يشفق أن يعيشها وينزوى عنها مرتداً إلى نفسه ليحولها إلى عمل فنى هناك ، وكلما لحظت عينه أو نفسه مشهداً من مشاهدها لم يكن همه أن يستمتع بهذا المشهد وأن يزاوله ويضطرب فيه ، ولكن كان همه التقاطه لأنه مادة صالحة « للاستوديو » الأمين ! ومرد ذلك إلى مزاجه وتكوينه كما سلف . وكثيراً ما يكون انحراف المزاج مزية للفنان الذى يعرف كيف يحيل كل ما يصادفه إلى مادة فنية . وتوفيق من هذا القبيل . وقصة « ساشا » فى « زهرة العمر » من الأمثلة على ما نقول . وغلطة هذا المزاج هى اعتبار الفن مقابلاً للحياة لا متفاعلاً مع الحياة ؛ ولكن ليس من الضرورى أن توافق توفيق فى مزاجه لتستسيغ فنه فقد تخالفه فى الرأى والإحساس ، ولكنك تجد المتعة فى الأثر الناشئ عنهما فى الفنون

* * *

ثم نخلص إلى الحديث الخاص عن « زهرة العمر » فما قيمة هذا العمل الأخير ؟ إن هذا الكتاب يستمد قيمته التى ترفعه إلى مستوى أحسن أعمال توفيق الحكيم من ثلاثة أصول

من اللهجة الإنسانية الأليفة التى صيغت بها معظم الرسائل من الألم والشك والجهاد والقلق والاضطراب والتذبذب المستمر بين الحالات النفسية المختلفة ... هذه اللهجة التى تعقد أواصر الصداقة بين المؤلف وبين القارئ ، وتشعرها معاً أن بينهما صلة إنسانية ، وأن الإنسان ضعيف أمام القوى الخفية التى تسيطر على أقدار الناس وخطواتهم فى هذا الكون الكبير !

ومن « التنسيق الفنى » الذى يجعل من هذه الرسائل الواقعية وحدة مطردة فى سياق روائى ، والواقع حين يكتسب التنسيق الروائى مجتمع له بساطة الصدق وجمال الفن ، وهذا واضح فى « زهرة العمر » لمن يقرؤه منتبهاً إلى التنسيق الفنى الخفى الملحوظ !

ومن البيان الحى لمرحلة التكوين الفنى الصحيح ، حتى ليصح أن يطلق على الكتاب « سفر التكوين » . فالطريق إلى النضوج الفنى طويل ، ووعر ، وملىء بالأشواك ، والفن عسير ، والذى يثبت إلى النهاية هو الذى يحق له أن يتطلع إلى النجاح بعد الجهد الجهيد ... هذه خلاصة ما يشير إليه المؤلف فى « زهرة العمر » وبدلاً من أن يلقيه نصائح وعظات ، عرضه مصوراً فى حياة إنسانية ، فكان أقرب إلى النفوس

وإذا اجتمعت هذه المزايا الثلاث لعمل أدبى كانت حسبه ليعد عملاً فنياً ذا قيمة . ولكنها لا تجتمع وحدها فى هذا الكتاب ، فهناك الومضات الفكرية والإشعاعات الشاعرية التى لا بد منها لكل عمل حتى تسلكه فى عالم الفنون

وعيب هذه المقالات المحدودة المجال أنها لا تتسع للنموذج والمثال ، فليعد القارئ إلى أعمال توفيق الحكيم وبيده هذا المفتاح الذى قصرنا عليه المقال !

(حلوان) سيد قطب